قرية طيبة

بقلم : جمال ربيع

في تمام الثامنة صباحا استقل القطار من (طنطا) الى القاهرة ..

وفي تمام الثامنة والثلث استقل عربة راحت تجري به وتتلوى في شوارع كثيرة متقاطعة تعج بالناس وبالحركة .. واخيرا استقرت به أمام مبنى كبير .. كبير جدا ... وقال له السائق .. « وصلنا » وصعد الى المبنى .. الى الطابق العاشر ثم نزل .

وبعد خمس دقائق عاد يستقل عربة أخرى انطلقت به في سرعة جنونية الى المكان الذي يقصده بضاحية الهرم وتوقف أمام المكان المنشود ونزل وعلى وجهه ابتسامة رضا طافت على شفتيه صاعدة من أغوار نفسه ..

ولكن .. بعد عشر دقائق عاد مسرعا يكاد يعدو ليشير الى عربة ثالثة حملته في بطء صابغه كثيرا الى محطة مصر .. وهناك انتظر ساعة ونصف .. حتى حان موعد القطار المسافر الى .. طنطا ..

واستقله ولأول مرة في يومه هذا منذ بدأ صباحه وبدأت معه هذه الرحلة السريعة المتعطفة المملة يحس نفسه بهدأ وتستريح .. ومط شفتيه .. وفرك يديه .. وتأوه ..

وانطلق القطار .. ونزل بسمعه الى عجلاته وراح يصغي لصوت احتكاكها بالحديد .. واحس أنه يستعذب هذا الصوت .. وأخيرا رفع سمعه عن القضبان عندما لاحقت عيناه سطح الحقول الخضراء في اتجاه يعاكس اتجاه القاطرة .. ووجد نفسه يبتسم .. الأمل الذي قتلته الخيبة ، والساعات التي ضاعت من عمره ولم تخلف غير الخيبة والندم .. والنقود التي تسلمها منه سائقو العربات وغيرهم ..

والفشل الذي لف شعوره .. بعد كل هذا تبتسم ؟؟ وطوت نفسه ابتسامتها حتى لا تثيره وتتركه يواجه كل ما جرى له في يومه الكئيب .. وعض على شفتيه يعتصر الالم توقهما . وتمتم .. لا حول ولا قوة الا بالله . .. لماذا فعل أبوه كل هذا ؟ لماذا حرم نفسه وأذاقهم الحرمان ؟

ليته لم يفعل .. من قال ان الموت امر يؤسف له . حمدا لله أن أمر نفس روحه ولم يمد له حبال العمر فربما كانت أوصلته الى القاهرة ليرى ما رأى ليرى نتيجة كفاحه وحرمانه نفسه من كل شيء .. وحرمان أحبائه الآخرين .. حمدا لله أنه مات ، الف حمد .. الف

الف حمد .. عدد حصى الارض ونجوم السماء .

واشعل سيجارته بعناية ، وجلس فيها نفسا عميقا .. ثم اطلق الدخان من فمه ، وراح يمسح نظره في حلقاته وهي تدور حول بعضها تلتف وتتقارب وتتباعد .. ثم تتلاشى . وعاد يتبادل الهمس مع نفسه ..

المتعلم الوحيد في عائلتنا يحيا هذه الحياة ؟ بالسخرية القدر .. وأمه .. ماذا سيقول لها ؟ بعد ساعات سيدخل عليها ليواجه نظراتها المتسائلة عن سر عودته في نفس اليوم وهو الذي ازمع الاقامة بالقاهرة مدة يومين كاملين . اه .. سيقول لها انه لم يجده ، سافر الى اسوان في عمل من اعمال الشركة . وتتكور المرارة على شفتيه في دلة قاسيه .. انه يذكر جيدا حديث أمه معه .. يذكره بالحرف الواحد .. يذكر امنيتها .. عشرة ابناء على شاكلة حمدي لتباهي بهم القرية ..

ويذكر حديثها .. ويذكر انه أمله كثيرا ولكنه طوى آلامه في رضى وهو يرى الغبطة تكسو وجهها الاسمر اشراقا وهي تتحدث عن ابنها حمدي .. عن اخيه المهندس الكبير ..

ودارت صورة اخيه امام عينيه اكثر من مرة .. تتريح كما رآه في ساعة .. واوقفها عن الدوران وثبت وضعها امام عينيه ورشقها بسؤال دار في رأسه وتركز في عينيه .

ماذا قدمت لامك ؟ .. لابيها ؟ .. لحيها ؟ لعياتها ؟ اسبال الاهمال عدم المبالاة بها ؟ .. ورمى الصورة التي عادت تتريح من جديد بنظره بائسة حزينة فيها الكثير من الاحتقار .. واطرق .. وهز رأسه يطرد منه صورة أخيه .. كانت نفسه تحدثه لحظتها بحقيقة شعور أخيه نحوهم .. انهم عبء معنوي يرهق مركزه الادبي .. ليتهم لم يكونوا له اهلا . لابد وان نفس اخيه تحدثه بهذه الامنية وهي ترى صاحبها مرموقا .. مهابا .. ينادي بالقاب التفخيم .. نعم .. هذا حق كما راه اليوم بعينيه مستسلما لهذا الشعور عندما دخل عليه داره .. والفرحة تتسع صدره .. ينتظر ساعة يلقى اخاه ، ويحتضنه ويقبله ، وينسى في ترحابه كل مايمسه من احاسيس صنعتها ظروفه .. ولكن اخاه لم يفعل . كان ، كمن يلقى غريبا يقصده في حاجة تضيق بها نفسه ويضطر الى معاملته . ازدهب ما بصدره من انشراح ، واحسه ينكمش ، وينكمش حتى ظنه سيختفي من ظهره . احس هذا ساعة ان نادى اخاه المهندس خادمه النوبي وقال له ..

« قدم كوبا من عصير الليمون لسعيد »

لم يقل أخي ..

وجلس ناظريه من دوامة الخيالات الباهتة الى ملابسه .. لم تكن ملابسه حقيرة لهذه الدرجة .. انه يرتدي قميصا رخيصا حقا ولكنه نظيف .. وسرواله لم يمض على استعماله اكثر من عام ونصف ولا يعتقد أن الخادم لاحظ ذهاب لونه عند الركبتين فلا يبدو ذهاب اللون واضحا تماما لزاء الخادم ويلحظه ولكن لابد ان أخاه رآه ولهذا انكر أخوته ولاقاه ببرود وخجل من

تقديمه الى خادمه .. وعاد بناظريه الى دوامة الخيالات .. وحدث منها صورا مختلطة لطفولة اخيه .. كان انطوائيا لا يرضى عن شيء .. وكان له ركن خاص يبروى فيه لا يكلم احدا .. وكان ينظر الى الاشياء نظرات طويلة ادهشت والده .. وافلقت أمه .. حتى انه كان لا يقبل في صباه في كتاب القرية أن يتفوق عليه احد وان حدث واخطأ في شيء من دروسه يعود باكيا الى بيته يعض على شفتيه ولا يبوح لأحد بما يبكيه ..

وعندما أرسله والده الى المدرسة .. ثقلت قدماه من يومها فكان يسير في بطء ينظر عن يمينه وعن شماله في كبرياء وغطرسة .. لا ينظر أمامه ابدا .. كان دائما رافع الرأس ..

وعندما أظهر تقدمه في الدراسة وتفوقه على أقرانه ، قرر أبوه الانفاق عليه حتى يتم دراسته الجامعية ، وفي قلبه حلم جميل .. حلم لكي يحققه حرمه هو من اتمام دراسته مكتفيا بحصوله على الابتدائية ووظفه كاتبا بمصلحة المساحة بطنطا مع انه كان لا يأس في دراسته .

والآن أصبح حمدي مهندسا .. بين يديه المال .. والمركز .. يحيط به احترام واعجاب الجميع .. كل هذا أنساه أمه .. نعم نسيها .. ثلاثة أشهر كاملة لم يرسل اليها كلمة مكتوبة يسأل فيها عن أحوالها .. وهي طوال الثلاثة أشهر هذه .. طوال ساعاتها تسأل عن سبب انقطاع مراسلاته القليلة مرة بلسانها .. ومرة بعينيها .. وثالثة بقلقها البادي في كل تصرفاتها .. وتهيب به أن يكتب الى أخيه .. وكتب له .. خمسة عشر خطابا .. ولم يأته الرد .. وأخيرا من أحد معارفهم علم أن أخاه نقل الى ادارة الشركة بالقاهرة .. فأسرع يطمئن قلق أمه بزيارته لاخيه .. وكان ما كان .. الكأس في يده والنظرة المتعالية في عينيه .. وضيقه الواضح على قسمات نفسه .

كان شخصا آخر .. لا يمكن أن يكون نشأ في بيتهم وشب في بيتهم .. انه شيء آخر .. شيء كبير غريب ، شيء من القاهرة وليس من قريتهم ..

وزفر الأم من صدره دفعة واحدة .. وتمتم ..

« لم يقصر الى الخادم .. الحمد لله ان احدا من أصدقائه لم يكن موجودا »

وتهادى القطار في سيره .. ثم توقف ومازال « سعيد » في اطراقته وشروده .. ولكن نداء ايقظه وأعاد اليه انتباهه .

« سعيدية .. سعيدية .. حضرتك السيد » ..

وانتفض متناولا حقيبته ، وترك العربة الى طوار المحطة ونفسه تهمس اليه بأنها احدى كرامات السيد البدوي .. فلولا أن سمع نداءات الباعة لظل في شروده ، وقام به القطار وسار به الى نهايته الى الاسكندرية .. وهو لا يعرف بالاسكندرية أحدا .. والخطيه الذي يعمر جيبه ماكان ليكفيه مبيتا واقامة بالاسكندرية وعودة الى طنطا في الصباح .. وعاد يتمتم .. « الحمد لله

كرامات يا بدوى ، ورفع عقد يفضلها شاكرا حامدا ..

وانطلق يعدو الى ميدان المحطة فاختاره ، ثم الى خارجها حيث تقف عربات الأجرة .. ولحق بآخر عربة تقوم الى خط سيرها عمارة بقريتهم « كنامة » وحمد الله .. وعاد يذكر كرامات السيد .. وتوجه بعينيه الى مئذنته وهمس .

ـ سازورك يا بدوى .. سازورك لأشكرك .

وسارت العربة تتلوى على الطريق الزراعى تمر فوق الجسر وكل الطعم الخانة الصلبة .. وعاد خياله يسبقه الى امه .. وحاول أن ينقض عن نفسه آثار زيارته لأخيه حتى يلقاها وليس على وجهه ما ينم عن ضيقه .. لو أنه فشل فى تظاهره لامتلأ قلبها كما يعهد حضرة المهندس العالى الذى تفاخر به اهل القرية جميعا وتتمنى لو كان لها مثله عشرة .

وابتسم فى حسرة ومرارة .. وهز راسه ينفض آلامه وهمس لطيفها الذى تراءى له .

(مهندس واحد فيه الكفاية « يا امى ») .

وغرق فى آلامه .

وصاح السائق

ـ كنامة .

وتناول حقيبته من بين ساقيه .. وفتح الباب ، وغادر العربة ثم دار حولها وقدم الى السائق أجره ، ثم انطلق فى خطوات بطيئة يشق الطريق المظلم الى قريته التى ذاب سواد منازلها فى سواد الليل فلم تعد يرى منها غير المشاعل الحمراء الباهتة التى تتراقص تحاول أن تحدد ملامحها الهزيلة .

والتقى به ابن عمه مصطفى عائدا من عمله بالحقل، فسأله مستغربا عودته .

ـ قالت عمتى انك ستبقى بالقاهرة يومين أو ثلاثة .

ورد عليه فى اقتضاب

ـ اكتفيت بنهار بطوله

وسأله ابن عمه وقد برقت فى عينيه التماعة اعجاب

ـ وكيف وجدت الباشمهندس ؟

وأجابه فى هدوء يحرب صوته قبل أن يلقى امه .

ـ بخير .. لقد استدعى فى مهمة ناسوان ورافقته حتى ركب القطار .. مسكين اخى حمدى كل وقته لعمله .

وحدق النظر فى وجه ابن عمه ليرى ان كانت سرائه كشفت شيئا من ضيقه وألمه ، واطمأن عندما سمع ابن عمه يقول وهو يجذب حاموسته الى حافة الطريق

ـ من زمن لم نر الباشمهندس .. ربما نسى بلده واهله ؟ .

فأجابه « سعيد » بنفس الصوت الهادىء .

ـ مسئولياته كبيرة يا مصطفى .. كان الله فى عونه .

وانطلق الى داره وهو يهمس لنفسه .

« كان الله فى عونه » .

ولقيه بعض شباب القرية ورجالها

جالسون كعادتهم أمام حانوت القرية يتسامرون ، وسألوه عن الباشمهندس .. وطمأنهم على الباشمهندس وسمع قريبه مختار رضوان يقول لمعدان حاورهم بحظوات ..

« والله يا أولاد وظلـــــم من بيت الصعيدى مهندس ياولاد

وتمتم .. وأطرق برأســـه أسى .. وهمس للظلام ..

« صدقت .. طلع من بيتنا مهندس .. ظلم ومارحمش» .

ووجـد بوابة منزلهم مفتـــوحة على مصراعيها كالعادة والظلام مسدود على أغلب أرجائهـــا ماعدا الدائرة الضيقة التى يترنح فى محيطهـــا ضوء سراجهم وعيها رأى حالته « أم على » جالسة .. ولم ير أمه فسأل حالته عنها فهبت فى اضطراب لعودته السريعة وقالت له

ـ لماذا عدت فى نفس اليوم ؟ خيرا يا « سعيد ..

فقاطعها قائلا ..

ـ أين أمى ؟

فأجابته

ـ نامت من ساعة .. كيف حـــال الباشمهندس ؟

فقال فى ضيق ..

ـ بخير .. سافر الى أسوان ..

ووضع الحقيبة فوق المصطبة وسألها فى دهشة ..

ـ ولماذا تنام فى مثل هذه الساعة ؟ انها مازالت فى أول الليل .

واقتربت الحالة وهمست له

ـ فاجأتها الحمى بعد سفرك بساعة .. ولم تستطع الوقوف على قدميها ، وسقطت فى صحن الدار وأمسك بحالته من كتفيها وسألها

ـ كيف حدث هذا ؟

وأطرقت السيدة وقالت .

ـ اطمئن .. لقد دعست جســـدها بالخل والملح واحكمت الغطاء حولهـــا والليلة ستعرق وتصبح على خير حال..

ونظرت فى وجهه وسألته .

ـ مالك مصفر الوجه هكذا ؟ ليست أول مرة تمرض فيها والدتك ..

وجاء صوت أمه ينادية .. فأسرع الى حجرتها يحمل السراج فى يده .. ونظر اليها ممدودة والأغطية تلفها حتى رقبتها فاقترب منها وقال فى لهفة ..

ـ سلامتك يا أمى ..

وراحت تنظر خلفه فاستدار ينظر الى حيث ركزت عينيهـــا ولم ير غير الظلام .

وأدرك أنها تتوقع أن يدخل عليها الباشمهندس .. وأن يكون قد جـــاء معه لزيارتها ولم يطق المبيت فى القـــاهرة الى الصباح ..

وأعاد اليـــأس نظرة أمـــه الى وجهه وابتسمت له فى اعياء وسألته .

ـ أين حمدى ؟ ولماذا عدت فى نفس اليوم ؟

واقتلع ابتسامة من قلبه وطبعها على شفتيه ومال عليها يقبلها قائلا ..

ـ كانك وليس لك غير جدى ..
لقد سافر الى أسوان فى مأمورية خاصة بالشركة وكان فى غاية الضيق من عدم تمكنه الحضور معى .. كاد يبكى وهو يستقل القطار مضطرا .. ولكنه فى صحة جيدة جدا وأوصانى أن اقبلك..

ومال عليها يقبلها فتناولت يده تقبلها .. وتدعو لهما بالسعادة وجرت دموع الحنان فوق وجهها الساحب فمد يده يمسح دموعها تضمطها تسأله ..

ـ أحقا وجدته فى صحة جيدة ؟

فابتسم فى وجهها وقال :

ـ على خير حال ، صحة من حديد ..

وعادت تسأله فى لهفة :

ـ وماذا قال لك عنى ؟

وتصاحك قائلا لحالته ..

ـ تصورى الى أى حد تقرم أختك مأمها المدلل .. ماذا قال لك عنى ؟

وابتسمت الأم واغمضت عينيها .. فجذب الغطاء فوق صدرها وقبل جبينها وانسحب فى هدوء ..

وتقدمته حالته تحمل السراج فوق رأسها وصورته يرقص حولهما رقصاته الباهتة الحزينة .. وعليه مر الليل بطوله وثقله وعياء لم تحتضنهما سنة من النوم . وجاءه صوت الشيخ « أبو الحدايل » يعلنه باقتراب الفجر فقام يتحمل حقيبه ، ويمم وجهه الى مسجد القرية ، وقد هدأت نفسه بعض الشىء ، وتوضأ ، ودخل المسجد يهيم بالدعوات والتوسلات .. وأدرك انه أول من دخله لصلاة الفجر .

ونظر فى الأركان فرأى أشباحا سوداء قاتمة فتقدم منهم وأيقظهم جميعا .. واستقبل القبلة ، وبدأ تسبيحاته ، وتراجعت أوهامه وأحلام الأمس السوداء أمام صوته المرتفع بالتسبيح والحمد .. وبدأ الناس يتوافدون الى المسجد تسمعهم همهماتهم الخاشعة .. وبكى .. بكى ما شاءت له دموعه المحرورة وأحلامه المخدوعة .. وحمد للظلام ستر دموعه حتى انتهى من صلاته ، فمد كفيه يمسح وجهه وعاد الى بيته وقد هدأت نفسه ، وسكنت لدقات آلامه .

وبالقرب من داره سمع حالته تسأل عنه أحد الذين مسقوه فى الخروج من المسجد وسمع الرجل يجيبها بأنه قادم خلفه فأسرع الى حالته عائدا ، وقد استيقظت من نفسه أحاسيس الرهبة والخوف من المجهول وسألها

ـ خيرا يا حالة .

فقالت وهى تتقدمه الى غرفة أمه .

ـ لا أدرى .. حاولت أن أوقظها ولكنها لم تجب مع أن أنفاسها تتردد .

وأسرع الى أمه وأشار الى حالته أن تفتح النافذة . ونظر اليها . كان العرق يكسو جسدها كله الشحوب يقبض بيده الصفراء على وجهها ، ومد يده الى رسغها يتحسسه فاذا نبضات القلب لا تكاد تحس واعتراه قشعريرة هزت كيانه وعقدت لسانه .. ولكنه وجد نفسه يتحرك .. وانطلق يعدو .. وأمام باب طبيب الوحدة المحكمة وقف يطرقه فى عنف .. وأخيرا ظهر الطبيب أمامه وكان يعرفه فاندفع اليه قائلا :

ـ امي يا دكتور .. الحالة غاية في السوء .

واشار اليه الطبيب بالدخول حتى يرتدي ملابسه .. ووقف يساعده حتى اذا ما انتهيا من ذلك انطلقـــا الى المريضـــة .. وقال له الطبيب وهما يحدان السير ..

ـ طالما نصحتك بعرضها على أخصائي بالقاهرة .. ولكنك ..

فقاطعه « سعيد »

ـ العين بصيرة واليد قصيرة ..

فالتفت اليـــه الطبيب وقال له في دهشة ..

ـ الباشمهندس ؟

فعض على شفتيه واشـــاح بوجهـــه وقال :

ـ في أسوان ..

وعاد الطبيب يسأله :

ـ ولماذا لم ترسـل اليـــك بتعليمات علاجها ؟

وعاد يعض على شـــفتيه من جديد وقال :

ـ هذه غلطتي .. لم اشأ أن ازعجه وانتظرت حتى ينتهي من عمله هنـــاك ويعود ..

وهز الطبيب راسه وقال :

ـ الحقيقة انك أخطأت .. انهـــا مريضة «بالمواليناء» يا أستاذ سعيد .. مرض مميت .. وعلى اي حـــال ربنا موجود ...

وكانا قـــد اقتربا من المنزل فلمحهما الصمت .. ودخل الطبيب عليها وبدأ يفحصها وعلى وجهه قرأ سعيد نتيجة الفحص .. لم يفعل الطبيب شيئا اكثر من أنه حقنها بمصل أخرجه من حقيبته .. وقام يغادر الغرفة بعد أن أشار الى سعيد بأن يتبعه .. وفي صحن دارهم وقف يواجه حكم القـــدر على لسان الطبيب ...

ـ الحـــالة ســـيئة جدا ... بل ميئسة ..

فالها الطبيب في هدوء :

وعندما وجد سعيد لسانه ســـأل الطبيب

ـ وما العمل ؟

فاشاح الطبيب قائلا

ـ الله موجود ...

فامســـك سعيد بذراعه ، وقال له متوسلا وكأنما حيـــاتها بين يدي هذا الطبيب :

ـ الا تستطيع أن تقدم اليها شيئا ؟ أي دواء .. أي شيء ..

وفي اشـــفاق أخرج الطبيب دفتره وخط بضع كلمات عليه وقدم الورقة الى ســـعيد وقال له وهو يحـــكم غلق حقيبته :

ـ هذا الدواء قد يســـاعدها لأيام قليـــلة .. أنت رجل ومتعلم ولهـــذا صارحتك بالحقيقة .

فسأله سعيد في حماس كمن رأى بريق الأمل وسط ظلمة اليأس :

ـ وهل أحدث نطقا ؟

قربت الطبيب على كتفه وقال .

ـ احضارا للوقت عليك ان تسافر الى القاهرة لتحضر الدواء .. لمعه جنيهان فقط .

ونظر الطبيب في ساعة يده وأردف قائلا ..

ـ يمكنك ان تستقل قاطرة السادسة والنصف .. انه موعد مناسب واقلّ معك ..

شد على يده وانصرف مطرقا ...

ووقف سعيد وحده في صحن الدار يواجه المرض .. والموت .. وآلام نفسه .. ثم انتفض واسرع يرتدي قميصه وسرواله ونادى على حالته وعندما خرجت اليه قال لها ..

ـ لابد من السفر الى القاهرة للحصول على الدواء وليست معي نقود ..

وفي هدوء مدت السيدة يدها الى صدرها ، واخرجت لفافة حلت عقدها الأربعة ، وسلمته خمسة جنيهات كاملة فتناولها وانطلق يذهب الارض بقدميه الى الطريق الزراعي ليستقل احدى عربات النقل الى طنطا .. ومنها الى القاهرة ..

ودخل على أخيه وبيده الدواء ورآه ممددا فوق اريكة في حجرة الاستقبال الأنيقة ، وقد أسند رأسه الى وسادة حريرية حمراء وفوق ذراعه يداعب شيئا ممددا فوق ارض الحجرة ، ويضحك من ملء قلبه الخالي .. واعتدل اخوه عندما رآه يملأ الباب امامه وكذلك حملت الفتاة علالتها حول جسدها وقامت حائرة تتصنع الخجل .. وقال له أخوه في برود ..

ـ اهلا سعيد .. لقد عدت ثانية ..

وتقدم منه وقد زم شفتيه .. ووجدتها فتاة الليل فرصة فانسلت كالفراشة تغادر المكان . وواجه أخوه وقد انقلبت المرارة التي ملأته الى رعشة راحت تهتز بيديه وقال له ...

ـ أمك تموت ..

وضحك حمدى ..

ضحك عاليا وهز رأسه وقال ...

ـ طريقة سادجة تحملني بها على السفر .. سذاجة أهل القرية ..

ومال على أخيه يهزه .. ثم ابتعد عنه وتمتم ...

ـ مجنون ...

ونظر اليه حمدى في سخرية وقال ...

ـ احقا لم تذق الخمر في حياتك ياسعيد ، تذوقها مرة .. مرة واحدة وبعدها لن تتركوها .. انها منعشة .. منعشة جدا ..

وصاح سعيد في وجهه ...

ـ أمك تموت .. أتسمعني .. أفق .. وبعدها عد لسكرك كما تشاء فلن يعوقك أحد .. أسرع وارتد ثيابك فربما رأتك وماتت راضية .. خدعتها الايام فيك .. ولا بأس من أن تموت بخدعتها ما دام هذا يحقق لنفسها الاطمئنان .. قم ...

ومد يده يجذبه في خشونة .

وحمدى يحملق فيه بين اليقظة والسكر لا يصدق ولا يكذب ولا يستطيع .. وجره الى دورة المياه جرا .. وهناك أخذ رأسه تحت الصنبور وأطلق المياه قوية فوقه وهو يقول فى غيظ ..

ـ سمعتهم يقولون أن هذا يعيد ..

ومن تحت الماء المتدفق جاءه صوت حمدى نصاله ...

ـ من قال هذا ؟ حمار من قال هذا ..

وأخيرا رفع سعيد رأس أخيه وراح يجففه ويمسح عن وجهه .. وهدأ له فى صراحة ..

ـ أرجوك أن تسرع .

وفى نفاد قاتل راح حمدى يرتدى ثيابه ولا يتكلم ولا يرفع عينيه الى أخيه ..

وفى طريق خروجهما توقف حمدى يسأل خادمه عن الفتاة فحدثه أخوه عن دراعه ومال للخادم .

ـ لاحاجة بك الى ارشادها للطريق .

واستوقف عربة . وصاح سعيد بالسائق

ـ انطلق بكل سرعة الى طنطا . الاخر معروف واسرع ..

وانطلقت العربة .. وخيم عليهما صمت أسود .. كانا يستقبلان الموت وكان الطريق طويلا .. لم يوجه الى أخيه كلمة .. ولم يحدثه أخوه فى شىء .. كانت نظراتهما تصطدم ثم تتشتت .. وتنطرق .. وأخيرا أشرفا على مدخل القرية ..

وترقرقت الدموع فى عينى سعيد .. واضطرب حمدى وأشاح ثم سأله ..

هل الحالة خطيرة الى هذا الحد ؟

لم يجب سعيد .. كانت الدموع تملأ عينيه وكان يجتهد ليحبسها .. ولم يكرر حمدى سؤاله وأطرق ينظر تحت قدميه ...

وفجأة صاح سعيد بالسائق وهو يشير اليه .. بيمينك عند هؤلاء القوم.

ونظر حمدى .. كانت المقابر على يمينهم وكان هناك جمع كبير من الناس وتمتم حمدى

ـ أتكون هى ؟

وفتح سعيد باب العربة قبل أن تقف بتمهل النزول .. وترجل واستقبلهما المشيعون وعلى وجوههم أبلغ تعبير لحزن الانسان على مصيره ..

وكان أول القادمين اليهم عمدة القرية .. لم يبدأ سعيد .. ثم يبدأ بالأبن الاكبر .. ولكنه اختص والد الفقيد بنظره بعبارات التعزية .. ويطلب له من الله السلوى والصبر الجميل .. وكذلك فعل الجميع .. الجميع بلا استثناء حتى أقاربه .. تركوه واندفعوا الى أخيه .. الى حمدى يعزونه فى أمه .

ووقف سعيد حائرا ثم تقدم الى القبر .. تقدم اليه وحده .. ولمحه ابن عمه .. وقف الى جانبه يتمتم بكلمات غير واضحة .. ونظر خلفه فاذا بالناس وقد التفوا حول أخيه ... وهو واقف بينهم عالى الرأس ينظر ناحية القبور ..

كان كل شىء قد انتهى بالنسبة لأمه .. سكنت قبرها .. وقام أهله بما يجب وأسرعوا بها خوفا على حشائها من شرور هذا اليوم الحار ...

وقال له ابن عمه ..

ـ عانت بعد ركوبك القطار بدقائق ..

وهز رأسه ومد يده يمسح دموعه ..

ثم تقدم خلف جمع المشيعين وساروا جميعا يتقدمهم أخوه الى القرية .. واحترقوا طرقاتها .. واقبل اهلها نساء ورجالا وصغارا على اخيه يعزونه بدموعهم ويترحمون على أم الباشمهندس .. كانت القرية كلها حزينة على الفقيدة ..

وهناك أمام دارهم وحد كل شيء معد .. قام أهل القرية من اهله ومن غيرهم بالواجب .. وتقدم اليه الحاج متولي شيخ البلد وانحنى له حائرا وهمس له :

ـ أرجو أن تكون راضيا .. لقد اعددنا كل شيء ليناسب مقامك يا الباشمهندس . فسيحضر المأمور والاعيان ليقدموا له العزاء .

وانتفض غضبه في صدره .. ولكنه تماسك وسأل الرجل :

ـ وكم تكلف كل هذا ؟

وردت الرجل على كتفه وقال :

ـ خمسة عشر جنيها .. البركة في الباشمهندس .. كلنا لها .. سعيد ..

فطرق قائلا :

ـ نعم .. البركة في الباشمهندس . البركة كلها فيه ياحاج !!